نظرية الحضارة في فلسفة اسوالد اشبنجلر

The theory of civilization in the philosophy of Oswald Spengler

جمال بروال [1]

[1] جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، djamelphilo@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/28 تاريخ القبول: 2022/05/04 تاريخ النشر: 2022/05/31

ملخص

يعد البحث في موضوع الحضارة السمة البارزة في فلسفة التاريخ وخاصة في الفترة المعاصرة، وذلك بغية فهم خصائصها وأسسها وكشف إنجازاتها ومظاهرها وتفسير مسارها والتنبؤ بمستقبلها. لقد أدى اهتمام الدارسين والمفكرين في هذا المجال إلى بلورة العديد من النظريات المفسرة للحضارة. ولعل من أشهرها نظرية الفيلسوف الألماني اسوالد اشبنجلر. لقد جعل هذا الأخير جوهر البحث في كتابه "تدهور الغرب" يدور أساسا حول محور الحضارات لا الشعوب والأمم واللغات، فهو بصفة عامة يعد دراسة لفلسفة التاريخ، يسعى من خلاله كشف تراكيب التاريخ، والذي يقصد به مجموع الوحدات الأولية أو ما يعرف بالدوائر الحضارية.

إن هذا المقال يهدف أساسا الى كشف حقيقة تفسيره للحضارة، والتي تمثل وحدة من وحدات التاريخ.

كلمات مفتاحية: حضارة؛ نظرية؛ اشبنجلر؛ فلسفة تاريخ

Abstract:

The research on the civilization subject is the prominent feature in the philosophy of history, especially in the contemporary period and that's to understand its characteristics and foundations, reveal its achievements and aspects, explain its course and predict its future. The interest of scholars and thinkers in this domain led to the establishing of many theories that explain civilization. Perhaps the most famous theory belongs to the German philosopher Oswald Spengler who made the essence of the research in his book "The West Deterioration" revolves mainly around the topic of civilizations, not peoples, nations and languages , because it is generally a study of the philosophy of history, through which it aims to discover the structures of history, which is meant by them the total of the primary units or what is known as the civilized circles.

This article aims mainly to reveal the truth of his interpretation of civilization, which represents a unit of history.

Keywords: civilization; theory; Spengler; philosophy of history

المؤلف الرسل: جمال بروال، الايميل: djamelphilo@mail.com

1. مقدمة

لا شك أن موضوع الحضارة، قد نال حيزا كبيرا من الدراسات الفلسفية الحديثة والمعاصرة، حيث تم مقاربته من زوايا عدة، وهذا كله من أجل فهم مشكلة الحضارة، واستخلاص القوانين الكلية التي تتحكم فيها سواء في سير حركتها والتنبؤ بمستقبلها، وتزويد الإنسان بمعرفة حركية ومسار المجتمعات والحضارات.

لقد تمخض عن هذا الاهتمام أراء وأطروحات ونظريات متعددة، تتعلق بمفهومها وخصائصها أسسها ومقوماتها، مظاهرها وانجازاتها، آثارها وعلاقاتها مع بعضها البعض، مصيرها ومستقبلها. كما نظرت إليها بشمولية، أي بالنظر إلى كل ما يتعلق بميلاد ونشوء الحضارات وصيرورتها وسقوطها واضمحلالها فآمنت بالحضارة بوصفها وحدة من وحدات التاريخ.

ولعل من أبرز النظريات المقدمة في هذا المجال من البحث، نجد نظرية العناية الإلهية التي هيمنت لحقبة زمنية طويلة من التفسير التاريخي للحضارات، حيث هيمنة الفكر التيولوجي في معظم الحضارات القديمة وفي خاصة في القرون الوسطى خاصة مع القديس"سانت أوغسطين"**Saint Augustine**(354-430 م) وهي الفترة التي هيمنت فيها الكنيسة على التفكير والكتابة التاريخية. هذه النظرية التي تقوم على مبدأ يعطي الله كل الفعل في الأحداث التاريخية، ويعفي الإنسان من صنع تاريخه. وبذلك تكون الآلهة هي مصدر لنشوء الحضارات وتطورها. ثم جاءت بعدها نظرية التقدم والتي ارتبطت بعصر التنوير في أوروبا مع القرن الثامن عشر، والتي ثار فيها المفكرون على التفسير الديني اللاهوتي وقالوا بأن الإنسان هو مركز التاريخ، وأن التاريخ يتكون من أفعال الناس ومساعيهم، أي أن الحضارة يصنعها الإنسان وليست الإرادة الإلهية، حيث أن التاريخ هو سير متواصل في سبيل التقدم بقيادة العقل الإنساني، وبذلك فهي فلسفة تتبنى التقدم الحضاري.

وفي القرن العشرين ظهرت نظريات أخرى، حاول أصحابها الاستجابة لدراسة الحضارات في سياق تاريخي، وإن اختلفت المنطلقات والأفكار التنظيرية التي أقيمت عليها، ومن أبرزها نجد نظرية: "اسوالد اشبنجلر" **Oswald Spengler**(180-1936م)

إن الإشكالية التي يمكن طرحها في هذا المقال: كيف فسر اشبنجلر الحضارة؟ وإلى أي مدى يمكننا القول أنه استطاع أن يؤسس لها نظرية فلسفية؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية هي: ما مفهوم الحضارة عند اشبنجلر؟ ما هي أسس وخصائص نظريته؟ كيف فسر قيام وسقوط الحضارات؟ وهل يمكن الحديث معه عن وجود حضارات متعددة أم حضارة عالمية واحدة؟

إن المتتبع للفظ الحضارة، كما ورد في معاجم اللغة العربية، يجده لا يكاد يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر، أي المدن والقرى، فهو نقيض البداوة، والتي تعني الإقامة المتنقلة في البوادي. حيث يرى "ابن

منظور" في معجمه "لسان العرب" أن مصطلح الحضارة يعني الإقامة في الحضر وهي خلاف البدو (ابن منظور، د ت، صفحة 148). وورد في المعجم الفلسفي لـ"جميل صليبا " بقوله: << الحضارة تعني الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة التي تعني الإقامة في البوادي>> (صليبا، 1978، صفحة 475). أي يعني العيش في مكان وفق معطيات وطرق تختلف عن تلك المعهودة في البادية. حيث تعني التخلق بأخلاق أهل المدن في جميع المظاهر الثقافية.

إذن فالحضارة أريد منها ما يستتبع الإقامة في الحضر من تعاون وتآزر وتبادل للمعلومات والأفكار في شتى ميادين الحياة، علوم وعمران وثقافة وغير ذلك ما يتصل بتقدم الإنسان وترقيه في مختلف مناحي الحياة (تركي، 2007، صفحة 27).

أما في اللغة الأجنبية، فقد ظهرت كلمة الحضارة (**Civilisat*i*on**) في اللغة الفرنسية عام 1734م(عصر الأنوار) وينحدر أصلها من صفة (**Civilis*é***) (متحضر) في (ق17).هذه الصفة تنحدر من فعل (**civilis*er***) (ق13) المشتق من الظرف (**civilement**) (ق14) ومن صفة (***civil***) (مدني، حضري) في (ق13) المأخوذة بدورها من اللغة اللاتينية (**civilité**) (ق14) وكذلك (**cité**)(مدينة، حاضرة) في(ق11) المأخوذة من(**civitas**). (بريتون، 1993، صفحة 19)

لقد تطورت دلالة ومفهوم الحضارة، إذ أصبح يعني خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حالة التحضر – وهي تقابل التوحش والهمجية – والمتحضر هو الذي يحمل جملة الصفات المكتسبة خارج الطبيعة، مجموع الصفات والظواهر المميزة للعالم المتقدم الذي يمثله الإنسان الأوربي آنذاك. وبذلك أسس مفهوم الحضارة على المركزية الأوروبية.

ويقدم قاموس اللغة الفرنسية (**Le petit Larousse**) تعريفا آخر لها، إذ تعني" مجموعة المميزات والقيم الشاهدة على درجة التقدم الإنساني وتطور المجتمعات" (**larousse, 2007, p. 251**) ، أي جملة مظاهر الحياة الثقافية والفنية والأخلاقية لمجتمع إنساني.

وانطلاقا من المعطيات الحالية، تعدى مصطلح الحضارة إلى معنى العالمية (**Mondialisation**) ثم الى معنى الكونية (**Univerlisation**) وأصبحنا نقول حضارة الكوكب الأزرق أي حضارة واحدة متحدة بين كل الشعوب.

إذن كلمة حضارة كما تذكر إحدى الموسوعات الفرنسية الكبرى، ليست عريقة الاستعمال حتى أن قاموس الأكاديمية لم يتضمنها إلا ابتداء من 1835 م. وتواصل هذه الموسوعة بأن هذا اللفظ بالرغم من تداوله يبقى معناه غامضا ويصعب تعريفه تعريفا جيدا. ولعل تعريف "ليتري" هو أوضح وأدق من تعريف غيره

فهو يقول: << الحضارة هي مجموع الآراء والعادات التي تنتج من الفعل المتبادل للفنون الصناعية والدين والفنون الجميلة والعلوم >>. (تشيكو، 1989، صفحة 18)

أما اصطلاحا، فيعرفها" ابن خلدون" بأنها << نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير>>. (ابن خلدون، 2007، صفحة 137) هذا التعريف يشير إلى المرحلة الأخيرة التي تمر بها الدولة أو المجتمع عندما تتفكك وتضمحل رابطة العصبية التي توحد المجتمع وتساعده على بنائه.

فالحضارة بالتعبير الخلدوني مرادفة للمدنية، حيث تعني درجة من التقدم التي تبلغها المجتمعات فالحضارة عند "ابن خلدون" هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه المادي (ابن خلدون، 2007، صفحة 405).

ونجد "جميل صليبا" في المعجم الفلسفي، قد ميز بين معنيين: أحدهما موضوعي **(Objective)** والآخر ذاتي (**Subjective**).

المعنى الموضوعي يطلق على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، التي تنتقل من جيل إلى آخر، في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة، كأن نقول الحضارة الصينية أو الحضارة الأوروبية. وبهذا المعنى فهي متفاوتة فيما بينها، إذ أن لكل حضارة نطاقها ولغاتها وطبقاتها، فنطاقها يتمثل في حدودها الجغرافية، وطبقاتها تمثل أثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات ولغاتها هي الأداة الصالحة للتعبير عن الأفكار السياسية والتاريخية والعلمية والفلسفية.

أما المعنى الذاتي كونها تعني" مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش" (صليبا، 1978، الصفحات 475 – 476).

إذن فالحضارة هي أرقى المراحل التي وصلت إليها أمة من الأمم في نواحي حياتها وأنشطتها الفكرية والعقلية، من عمران ومختلف العلوم والمعارف والفنون ومختلف المكتسبات.

يعرفها "لالاند" في موسوعته بقوله: << مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة ذات طبيعة قابلة للتناقل، تتسم بسمة دينية، أخلاقية، جمالية، فنية، تقنية، أو علمية ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض، وفي عدة مجتمعات مترابطة >> (لالاند، 2002، صفحة 172). فبذلك يؤكد على أن الحضارة تتضمن كل تطور علمي وتكنولوجي، وما أنتجه هذا التقدم من انجازات وابتكارات في مختلف ميادين الحياة.

يقدم " تايلور" تعريفا انثربولوجيا **(Anthrpologie)**– الانثربولوجيا علم يهتم بدراسة أحوال وثقافات الشعوب– حيث يعرفها بقوله: << الثقافة أو الحضارة في معناها الأثنوغرافي– الاثنوغرافيا **(Ethnographie)** علم موضوعه وصف المظاهر الحضارية لمختلف الشعوب – الواسع تعني ذلك الكل المركب الذي يشمل على المعارف والعقيدة والفن والأخلاق والقانون وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان ...>> (اسماعيل وخليفة، 2005، صفحة 138). قد اعتبر المفكر "تايلور" الحضارة مرادفة

للثقافة بل هما وجهان لعملة واحدة، أوانها درجة من التقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية بدرجة متقدمة.

إن لفظ الحضارة عند "اشبنجلر"، يطلق على دور الفتوة والإنتاج الروحي– دور الطفولة والشباب– أما الدور الثاني فهو دور الركود والإنتاج المادي ويمثل مرحلة المدنية. فلفظ الحضارة استعمله للدلالة على الدورين السابقين الذي تمر بهما كل حضارة إنسانية، لذلك نجده يعرفها في كتابه (تدهور الغرب) بقوله: << أن الحضارة هي نفس بلغت التعبير عن ذاتها بأشكال محسوسة معقولة، لكن هذه الأشكال هي حية متفتحة وولود ويوجد رحمها داخل الكينونة المصعدة للأفراد والجماعات... ليست الحضارة شيئا عظيما فقط بل إنها بكليتها شيء لا يماثله أي شيء آخر في هذا العالم العضوي، فهي النقطة الواحدة التي يسمو عندها الإنسان بنفسه فوق قوى الطبيعة ويصبح هو نفسه خالقا >> (اسوالد، 1964، صفحة 48).

إن "اشبنجلر" يطلق على الحضارة مصطلح الثقافة ((**culture** كمرحلة قبل المدنية (عدم التمييز بينهما)، أما كلمة (**civilization**) فتطلق على المدنية.

إذن فالحضارة هي رحلة من التقدم والرقي والتطور والحيوية التي يبلغها مجتمع من المجتمعات، لتكون بعدها مرحلة الانحدار والأفول وكذا التدهور، وسنجد هذا المعنى للحضارة قد تم تبنيه من طرف بعض المفكرين المعاصرين، وبالأخص الفيلسوف اشبنجلر.

2. خصائص ومقومات الحضارة عند اشبجلر

إن الحضارة عند "اشبنجلر"، تتميز بجملة من الخصائص والمقومات نذكر منها:

1.2 دورة بيولوجية (Biological cycle)

يرى" اشبنجلر" بأن التاريخ مكون من كائنات عضوية حية هي الحضارات، ليدحض المزاعم القائلة بوجود حضارة إنسانية واحدة، ليقرر ومن خلال اتفاق المؤرخين من أن الحضارة ككل لها وجود عضوي فهي تشبه الكائن الحي تمام الشبه، فتاريخ الحضارة كتاريخ الإنسان والحيوان والنبات في زمانه وصورته ومدة حياته، فإذا كان سياق الحياة واحد بين الأفراد التي تدخل تحت نوع واحد، فللحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه.

يقرر" اشبنجلر" على انه لا يشك أحد منا من أن شجرة من البلوط مثلا بعد أن بلغت من العمر ألف سنة، فإنه لا يمكن أن تبدأ اليوم نفس النمو الذي بدأت به يوم أن نبتت لابد للكائن العضوي من حد عنده يقف النمو، وهذا الحد يتوقف على الصورة الباطنية (الذاتية) للنبات أو الحيوان أو التاريخ أو الحضارة، الأمر الذي لا يسمح القول بحضارة إنسانية تستمر في سيرها في خط أفقي ممتد وتاريخ عام. ومنه يتقرر لدينا أن جوهر طبيعة تفسيره للحضارة أنه تفسير بيولوجي، كونه اعتبرها مجرد كائنا عضويا ينتهي عند أجل، ولا

شيء يحدث مرتين" لكل حضارة إمكاناتها الخاصة للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعود أبدا". (اسوالد، 1964، صفحة 69).

إن لكل حضارة روح زاخرة بالإمكانات والقوى الخصبة في باطنها المتوثبة للتحقيق والمؤذنة بنمو سريع وفذ خلال دورتها، تأتي إلى الوجود الحي في بيئة خارجية معينة، تشيع فيها قوى عديدة في حالة فوضى مطلقة، فتبدأ في تأكيد صورتها ضد هذا الخليط، لأنها تريد تحقيق الصورة التي تحملها، فلا بد من تنظيم هذا الواقع حتى يكون على منوال صورتها، فتاريخ حياتها هو تاريخ النضال الطويل والشاق، فإذا كانت راغبة في تحقيق الصورة والسلطان الذي تريده، فلا بد أن تنفذ إرادة القوة لديها وفق صورتها، وأن تحطم وتدفع القوى التي تعترض سبيلها.

وطالما تنطوي في باطنها على قوى خالقة، تستمر في النمو والنضال، إذا بلغت غايتها وحققت صورتها النهائية، بأن حققت في الخارج كل ما تحتويه من إمكانات باطنها، ينضب دمها وتتحطم قواها وكيانها فتتحول حينئذ إلى مدنية، أو تبلغ شيخوختها ونفسها الأخير. (بدوي، 1982، صفحة 102). إن المدنية تبشير بقرب وفاة الحضارة، إذ تخطو خطواتها النهائية نحو الانحطاط، فيدب فيها الضعف والانحلال والفناء حتى لا تعود أبدا.<< إن المدنية هي المصير المحتوم للحضارة >> (اسوالد، 1964، صفحة 87).

2.2 الدورة المقفلة(closed cycle) وظاهرة التشكل الكاذب(false formation)

1.2.2 الدوائر المقفلة والقطيعة بين الحضارات

إذا كان الفلاسفة المثاليين يؤكدون على وحدة الحضارة والمسار التاريخي، ومعاصريه يؤكدون على أن الحضارة في تقدم وتطور مستمرين، فإن" اشبنجلر" ينفي هذين التصورين، ليؤكد أن لكل حضارة شخصيتها المميزة لها، ونظرتها وفلسفتها المستقلة إلى الحياة (**weltanchang**).

إن هذا التميز في شخصيتها يجعل التفاهم الحقيقي بين الحضارات أمرا عسيرا أو غير ممكن، إنه يقرر أن الحضارات تعد بمثابة دوائر مستقلة عن بعضها البعض، لها دورة حياة ذاتية خاصة بها من ولادة ونشأة ووفاة. ويتجلى لنا هذا التميز والاستقلال (**L'Independence**) من خلال قوله:<< فان لكل منها أيضا فكرتها وعواطفها وانفعالاتها الخاصة وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها وتنمو الحضارات وتزدهر ثم تشيخ كحال أشجار الصنوبر والبلوط والأزهار والأوراق>> (اسوالد، 1964، صفحة 68).

قد تستعمل الحضارات نفس الكلمات أوقد يكون لها نفس المفاهيم والظواهر والنظم، لكن معاني هذه الكلمات تختلف من حضارة إلى حضارة أخرى، فكلمة القانون والديمقراطية والنظام كلمات مشتركة، لكن مدلولاتها تختلف من حضارة إلى حضارة أخرى. ويجب على فيلسوف التاريخ أن يكشف عن هذه المدلولات، كما يجب عليه أن يكشف العلاقة المورفولوجية (التكوينية) التي تربط ربطا داخليا بين المعاني التي تحتويها الألفاظ والمصطلحات التي تستعمل في كل الفروع الخاصة بهذه الحضارة (مؤنس، 1978، صفحة 305).

إن " اشبنجلر" يدافع عن نسبوية مطلقة بتأكيده على أن الحضارات منغلقة على نفسها، وليس لها تاريخيا أي تواصل واستمرار أو تأثر أو تفهم متبادل، وبذلك فهو يؤكد على فكرة القطيعة بين الحضارات(**La rupture entre civilisation**) في مقابل الفكرة القائلة بوحدة الحضارة الإنسانية. و بالرغم من أنه أزاح تصوره لتاريخ الحضارة الغربية من مركز التاريخ الذي تدعيه لنفسها، لكنه بالمقابل لم يمنح الحضارات الأخرى القدر الكافي من الاهتمام والدراسة.

إن "اشبنجلر" لا ينكر وجود اتفاق بين الحضارات (الثقافات) ولا أن البشر يتقاسمون خطوطا مشتركة – كونهم جميعا يتصفون بالحب والكراهية والتفكير، والتعليق أو تكوين فكرة عن الله – فهو يصر رغم ذلك أن كل قلق حقيقي يأتي من الداخل في نفس تريد تشكيل العالم، وبالنسبة للتبادل الذي يبدو، فإنه يتم في المظاهر الخارجية والسطحية وليس بالمعنى العميق للشيء(**Mathieu, 2006, p. 23**)

لقد قادت هذه المقدمات "اشبنجلر" إلى الاعتقاد أن ليست هنالك علوم أو فنون واحدة، وإنما لكل حضارة علومها وفنونها المختلفة عن علوم وفنون الحضارات الأخرى مثلها في ذلك مثل الاختلاف في الكائنات الحية." فلا يوجد هنالك فن واحد للتصوير الزيتي أو رياضيات واحدة، بل إنما هناك الكثير والعديد مما ذكرت، وكل فن يختلف في أعمق أعماقه عن مثيله الآخر" (اسوالد، 1964، صفحة 69).

إن كل حضارة من الحضارات التي ذكرها (ثماني حضارات) كل واحدة منها، لها وحدة من الغرائز والميول الفطرية والوعي، واصلها الخاص الذي تنتمي إليه وتستمد منها وجودها الحقيقي. (**Oswald, 2013, p. 8**) بل إنه ذهب إلى حد أبعد من ذلك كون أن لكل حضارة إنسانية عظمى" لغة سرية لشعورها بالعالم لا يفهمها إلا ذاك الشخص الذي ينتمي نفسه إلى تلك الحضارة " (اسوالد، 1964، صفحة 329).

يقرر" اشبنجلر" بأنه ليس هناك أي تأثير متبادل بالمعنى الحقيقي، أي أن يأخذ الكائن الحي شيئا أجنبيا عنه فيدخله في كيانه، كما هو بل لا بد منه إذا كان يريد ذلك أن يحيله إلى طبيعته هو أي بأن يتمثله ثم يهضمه، وفحوى ذلك أنه يخلقه من جديد وذلك لأن طبيعة الكائن الحي ليست على شاكلة واحدة، بل تختلف من كائن إلى كائن آخر كل الاختلاف (اسوالد، 1964، صفحة 60)

2.2.2 ظاهرة التشكل الكاذب

يقر" اشبنجر" بوجود ظاهرة خطيرة في الصلة بين الحضارات، تلك الظاهرة التي يسميها باسم "التشكل الكاذب" الذي استعاره من علم المعادن، فهذا العلم يتحدث عن ظاهرة غريبة، تحدث في تكوين المعادن، وتلك هي انه يحدث أن توجد بلورات معدن من المعادن في طبقة من الصخور، ثم يحدث لهذا الصخر شقوقا وفجوات، فيتسرب منها الماء، ليجرف الماء تدريجيا البلورات خارج مراقدها، حيث تترك وراءها تجاويف داخل الصخور، وعندما تحدث انفجارات أو ظواهر بركانية، فتتدفق الكتل المنصهرة وتشق طريقها داخل طبقات

الصخر، فتتصلب وتتبلور الكتل المنصهرة بدورها لا بشكلها الطبيعي لبلورتها، بل تظهر في ملء الأشكال الجوفاء في الصخر التي خلفتها البلورات القديمة بفعل الماء، وهنا تتشكل أشكال كاذبة ومشوهة، يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي، ويبرز نوع من الحجارة، وذو شكل غريب عن نوعها، وهذه الظاهرة يطلق عليها علماء التعدين الشكل الكاذب (اسوالد، 1964، صفحة 269)

طبق "اشبنجلر" هذه الظاهرة على تكوين الحضارات، محاولا من خلالها أي اتصال أو تأثير بين الحضارات، إذ لا يمكن لأي حضارة ما أن تشكل حضارة أخرى على صفاتها، حيث وجد "اشبنجلر" أن هناك حالات مشابهة لها تماما في صلة بعض الحضارات فيما بينها، أو في حالة تكوينها، أطلق عليها مصطلح التشكل الحضاري الكاذب. الذي هو وصف لتلك الحالة التي تضطر فيه حضارة عريقة فقدت قوتها الخضوع والتلاؤم الظاهري مع الحضارة الغالبة، مادامت لا تستطيع أن تنمو معبرة عن طبيعتها الخالصة، ويظن الناظر إلى السطح أن الحضارة المغلوبة على أمرها قد اختفت تماما، بينما هي كامنة خلف القشرة الخارجية التي فرضت عليها. " فكل ما يتدفق من الروح من الروح الفتية لهذه الحضارة قد جرت صياغته في قوالب قديمة، وهكذا يتصلب الشعور الفتي داخل انجازات هرمة، وبدلا أن يشب وينتصب مستندا إلى قوته الإبداعية الخاصة نراه لا يستطيع غير كراهية القوة الجافة كراهية تتزايد لتصبح مروعة هائلة فضيعة" (اسوالد، 1964، الصفحات 269-270).

وفي ظل هذا الحقد وتلك الكراهية يكمن أول شرط من شروط تحرير روحها الذي لا يكتمل ويتحقق خلاصها إلا بالقضاء على مظاهر التشكل الحضاري الكاذب الذي يتجلى في بعض ميادين الحياة الاجتماعية، وهو تشكل لا يشمل بالضرورة كافة مناحي حياة الحضارة، فقد يتحقق في بعض مظاهر وميادين حياتها، كما قد يكون شديدا أحيانا وسطحيا في أحيان أخرى. كما لا يمكن تحديد امتداده الزمني قد يطول قروناً وقد لا يطول، فهذا رهن بعوامل عديدة منها ما يتعلق بالحضارة موضوع التشكل الكاذب ومنها ما يتعلق بتلك التي فرضت وجوده عليها. وقد طبق هذه الفكرة أو الظاهرة بمثالين أو نموذجين حضاريين هما: الحضارة العربية والحضارة الروسية.

3.2 التعاصر والتناظر بين الحضارات

إعتمد " اشبنجلر" في تفسيره للحضارة بشكل أساسي على طريقة المقارنة بين الحضارات، والتي استقاها من احد فروع علم الأحياء(**biologie**) وهو علم مقارنة الأحياء الذي يختص بمقارنة المخلوقات والأعضاء المتشابهة في مختلف الحيوانات، وهو ما يعرف بالتوافق والتماثل (**Adécation**) وقد أطلق عليه اشبنجلر في التاريخ بمصطلح التعاصر.

لقد تأثر "اشبنجلر" بالتمييز الذي وضعه علماء "البايولوجيا"، بين المماثلة التي تعني التعادل أو التساوي الوظيفي، وبين التوافق أو التناظر الذي يعني التساوي في الهيئة والتركيب والوظيفة، وهذا يعني أن التوافق

أشد وأعمق من التماثل، فأن كل جزء من أجزاء جمجمة الإنسان، له ما يناظره عند باقي الحيوانات الفقرية،(وإن الزعانف الصدرية للسمكة وقوائم وأجنحة وأيدي المخلوقات الفقرية الأرضية)، هي جميعاً أعضاء متناظرة متوافقة، على الرغم من الاختلاف الذي بينها. كما أن الرئة في الحيوان البري، تناظر كيس الهواء في الحيوان المائي، غير أن تلك الرئة (تماثل) الخيشوم عند الطيور، لأن لهما وظائف متشابهة من حيث الاستعمال. (اسوالد، 1964، الصفحات 225–226).

أدخل "اشبنجلر" هذه الفكرة في المنهج التاريخي، وصاغها صياغة دقيقة في الجزء الأول من كتابه تدهور الحضارة الغربية حيث يقول: << إن البيولوجيا تستخدم اصطلاح مشاكلة الأعضاء (***homology***) كي تشير إلى تعادل مورفولوجي، وذلك كي تميزه بضده أي إصلاح المماثلة(***analogy***) الذي يرتبط بتعادل وظيفي(***functional***) وهذا التصور الهام قد أدركه غوته ووعاه ونحن سنترك لمنهاجنا في البحث التاريخي أن يمتصه أيضا >> (اسوالد، 1964، صفحة 225).

يتضح في هذا النص كيف استقى فكرة التناظر(***symétrie***) أو التعاصر(**Modernitie**) من البيولوجيا، وهنا يتجسد أكثر مدى بعده البيولوجي في تفسيره للحضارة، كما يبين تأثره بغوته الذي أدرك بدوره هذا التصور .

لقد قادت المماثلة الحضارية "اشبنجلر"، وبعد إجراء المقارنات بين الحضارات الإنسانية، إلى القول بفكرة (المعاصرة) أو (التعاصر) التي تعني رصد حادثتين تاريخيتين، لا تعيشان في وقت واحد، إلاّ إنهما تتناظران وتتطابقان في كل شيء، وفي هذا الصدد يقول "اشبنجلر": <<إنني أعني بكلمة معاصر، واقعتين تاريخيتين يشغلان تماماً المركزين النسبيين ذاتهما، وذلك بالنسبة إلى كل واقعة وحضارتها وهما بهذا يمتلكان أهميتين متساويتين متعادلتين>> (اسوالد، 1964، صفحة 226).

أراد "إشبنجلر" القول بأن جميع الظواهر الدينية والفنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعرفية، هي ظواهر متعاصرة بين كل الحضارات الإنسانية، من حيث الظهور والنشأة والتطور والهيأة والدور الحضاري، والقيمة التاريخية، لأن التركيب الباطني(***synthèse ésotérique***) لحضارة ما يطابق التركيب الباطني لأي حضارة أخرى، يقول "اشبنجلر": << وإنني لأمل بأن أظهر دون استثناء، إن جميع الإبداعات العظيمة، وأشكال دين أو فن، أو سياسة، أو حياة اجتماعية، أو اقتصادية، أو علوم، تظهر وتكمل نفسها وتموت في أوقات معاصرة في كل الحضارات>> (اسوالد، 1964، صفحة 227).

إن ما صدق هذا " التركيب الباطني لأي من هذه الإبداعات والأشكال ينطبق كليا وبدقة على مماثليه من الأشكال في الحضارات الأخرى.

لقد اعتمد "اشبنجلر" على مبدأ المقارنة واغرق في التشبيهات، في فهم وتفسير الحضارة، حيث أن مهمة فلسفة التاريخ، هي فهم البناء المورفولوجي (الشكل الخارجي)، إذ أن كل حضارة توافق في هيئتها وتركيبها مختلف الحضارات الأخرى، إذ تمر بفترات النشوء والازدهار والموت، وتشهد في مرحلة من المراحل ما تشهده حضارة أخرى من خصائص، من ظهور للتدين، الإصلاح الديني، التطهير، العقلانية سيطرة الآلية والمدنية في مرحلتها الأخيرة.

4.2 رموز الحضارات وسيميائها

1.4.2 رموز الحضارات (civilisation sympol)

إن ما يميز الحضارات عن بعضها البعض في نظر" اشبنجلر" هو الرمز، إذ أن لكل حضارة رمزها الأولي (***prime sympol***) الذي تنطلق منه، وهو بمثابة المفتاح الحقيقي لفهم تاريخها وسائر مظاهرها المنبعثة منها، من فنون وعلوم وآداب ونظم سياسية أو اقتصادية أو ثقافية واجتماعية. فكل ما في عالمنا الخارجي رمزا لمعنى معين في العالم الحقيقي، وفي ذلك يقول "إشبنجلر" << كل ما هو موجود يشع بالرمز>> (اسوالد، 1964، صفحة 308).

ويذهب "اشبنجلر" إلى أن للمكان ثلاثة أبعاد هي: الطول والعرض والعمق (البعد الثالث)، ويعد العمق البعد الأساسي قياساً للمكان، كونه يمثل انطباعا روحياً وليس حسيا لأنه يعقل ولا يرى، كما هو الحال للطول والعرض، وينتقد" اشبنجلر" النظر إلى أبعاد المكان الثلاثة على أنها أبعاد متساوية القيمة ومتعادلة وبذلك ينتقد "إشبنجلر" الفيلسوف الألماني "ايمانويل كانط"، كونه أهمل العمق في نظريته للمكان وأعطى المكان بعداً هندسياً ورياضياً فقط.، لأن العمق يرتبط بالتأمل أما الطول والعرض فيرتبطان بالحواس. (اسوالد، 1964، الصفحات 314-315)

ولما كان الرمز يرتبط بالمكان فإن ذلك الارتباط يكون مع العمق (***le fond***) لا مع البعدين الآخرين، أي أن الرمز يعتمد على العمق، وأن الشعور بعمق المكان في تصوره هو شعور مشترك (***La conscience collective***) بين أبناء الحضارة الواحدة، فضلا عن أن رمز المكان يعتمد أساسا على ذلك الشعور الذي يغزو جميع مظاهر الحضارة من (فن وعقيدة وأدب وفلسفة ونظام وعلم.. الخ من صور الحضارة، وإن كل تلك الصور الإبداعية للحضارة تعبر عن لغة الرمز الأولي، لا بطريقة الكلمات، بل بطريقة وجدانية تخاطب الشعور الباطني ولا تخاطب العقل أو الفهم. فالمنهج الحضاري عند" اشبنجلر" ينبثق من فكرة جوهرية مفادها أن الحضارات يمتاز بعضها من بعض بالروح الأولي الذي هو الجوهر الفرد لها والذي يتجلى في عالم الصير. فلكل حضارة نظرة خاصة لفكرة العمق، لأن روح الحضارة توقظ وهي تحمل نظرة جديدة للعمق، وبسبب التباين في وجهات النظر بين الحضارات حدث الاختلاف بينها في جميع مظاهرها الروحية والمادية،

وكل طريقة في النظر إلى فكرة العمق، يعدها "اشبنجلر" رمزا خاصا بتلك الحضارة. (اسوالد، 1964، الصفحات 223-224-225)

هذا وقد بين اشبنجلر رموز العديد من الحضارات، وجعل لها أسماء وصفات، رمز الحضارة اليونانية(الابولونية) هو الحجم المادي المحسوس، ورمز الحضارة العربية (السحرية أو المجوسية) هو المغارة أو الكهف، ورمز الحضارة الغربية(الفاوستية) هو الفراغ أو اللامحدود.

2.4.2 سيمياء الحضارات (civilisation sémiologie)

اعتمد "اشبنجلر" في دراسة الحضارات وفهمها، منهجا جديدا، شبيها بمنهج كوبرنيكوس ***Nicolaus Copernicus***(1473-1543)» في علم الفلك، وهو المنهج "السيمائي"، ومعناه المنهج العلاماتي أو الاشاراتي. فالسيمائية، من حيث كونها علما من علوم اللغة تعني لدارسيها، علم العلامات، أو دراسة الإشارات، دراسة منتظمة، وهي تمثل علما مهما يسميه الأوربيون بالسيميولوجيا(***Semiologie***)، ويسميه الأمريكيون بالسيميوطقيا (***Semiotics***)، فيما يسميه العرب (بالسيمياء). وهي عند "اشبنجلر" تعني دراسة العلامات والإشارات التي تعبر عن روح الحضارة ومغزاها، فإن السيماء مرادفة للسمة وللعلامة، وإن إدراك هذه السمات العامة، هو الذي عناه إشبنجلر "بالسيمائية" حيث نجده يقول: << كل ما يحمل علامة الاتجاه والمصير فإنما تنعت بالسيميائية >> (اسوالد، 1964، صفحة 206).

يرى " اشبنجلر" أنّ طرائق إدراك التاريخ، هي غير طرائق إدراك الطبيعة، وهذا يتوافق وتمييزه القائم بين التاريخ والطبيعة، غير أننا لا ندرك حقيقة التمييز بين هذه الطرائق، لأننا نستخدمها جميعاً دون ما وعي بأي تعارض بينها، إذ إن هنالك "مورفولوجيا" خاصة بالتاريخ، هي السيمائية فيما أن هنالك مورفولوجيا خاصة بالطبيعة هي المنهاجية (***Méthodologie***). ويشبه " اشبنجلر" ظواهر التاريخ الثانوية (ملامحه الخارجية)، بظواهر الإنسان الخارجية (سلوكه، وخطواته، وأسلوبه في النطق والكتابة)، فإن معرفة الإنسان، تستلزم معرفة كل هذه الظواهر.

غير أن السيمائية، لا تجعل معرفة الإنسان تقتصر على كل هذه الظواهر فقط، بل تتعداه إلى إدراك الحضارة التي ينتمي إليها الإنسان، "سيميائها، نطقها أعمالها"، وان تلك المظاهر مشابهة، لظواهر الفرد الخارجية، فالسيميائية، تدرك الروح التي تقف خلف العلامات والظواهر الثانوية في الحضارة، أي يتخذ من ملامح الحوادث رموزا للروح التي أملتها، هذه الروح التي تطبع جميع مظاهرها وجوانبها بطابعها الخاص، كما تطبع روح الإنسان، مظاهره الخارجية بطابعها الخاص. (اسوالد، 1964، ص 206-207- 208)

إن اعتكاف" اشبنجلر"على دراسة أحوال أوروبا خلال القرن التاسع عشر والعشرين، جعلته يتوسم ملامح انحلالها، من خلال مظاهرها من انحلال في الفن والشك المتزايد في قيمة العلم ثم المشاكل التي أثارتها

انتصار المدينة العالمية على الريف والأزمات التي أصابت النزعة المادية (صبحي، 1994، الصفحات 249–250). فالحضارة الغربية تعيش الآن مرحلة احتضار، حيث انتهى في نظره عمرها الافتراضي، وأن التنين الأصفر سيكون الوريث لها من بين الحضارات الإنسانية الأخرى التي ما زالت تعيش حتى تاريخنا المعاصر. فالنظريات الدائرية تجمع على أن الحضارة تكون في طريقها للاندثار، حين يصبح فيها الاتجاه المادي هو المسيطر على الاتجاه الفكري والروحي والديني وحين نشاهد الإغراق في المادية المفرطة اليوم يتأكد لنا مدى واقعية وصحة تنبؤاته.

5.2 السقوط الحتمي للحضارة وعدم إمكانية التجدد

إن نظرية "اشبنجلر" بشأن الحضارة أو الدورات الحضارية، تكمن في الحتمية التي صيغت بها، فهو يفترض أن المراحل الأربعة السابقة ينبغي أن تمر بها جميع الحضارات، حيث يقول:<< إن كل حضارة تمر بمراحل العمر ذاتها التي يمر بها الفرد الإنسان، فلكل حضارة طفولتها وشبابها ورجولتها وشيخوخته>> (اسوالد، 1964، صفحة 218). وإذا تتبعنا صورة أخرى يقدمها لنا "اشبنجلر"، فإنها تدور على أربعة فصول تمام كما هو الحال لفصول السنة. ربيعها الذي يتسم بالفاعلية الروحية، وصيفها الذي تتضج فيه وخريفها الذي يسوده التحليل العقلي وشتاؤها الذي تستنفذ فيه جميع إمكاناتها الداخلية فتنهار (اسوالد، 1964، صفحة 777). وهو ما يعني أن التاريخ يفرض قالبا محددا تتخذه كل حضارة، ولا حيلة للبشر فيه، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يمكن للمؤرخ أن يتنبأ بالمستقبل، وهو يتنبأ بالفعل بمصير الحضارة الغربية ويرى أنها لم تستكمل بعد مراحل حياتها، ويتكهن بفترة دوامها ويرسم خط سيرها، ويعتقد أنها قد دخلت منذ عام (1800) مرحلة الشتاء الباكر، ففي هذا التاريخ بدأ الغرب مرحلة توسعه الاستعماري الوحشي الخارجي عن طريق الرأسمالية بأسواقها دائمة التوسع والتمدد، وبهذا يكون قد ولج مرحلة "إمبريالية الحضارة" التي تحاصر الروح الأوروبية وتهددها التي كانت متجهة قبل ذلك نحو الداخل باتجاه المعرفة والفن والأدب والحضارة الغربية الآن في اعتقاد "اشبنجلر" تعيش في مرحلة إجترار الماضي وتقبل على الاستمتاع بألوان الترف الحضاري، داخلة بذلك مرحلة التداعي. وهذا المصير حتمي حيث لا أمل للحضارة الغربية في إنقاذ نفسها، ذلك لأن الحضارات تزدهر وتذبل مثل الكائنات الطبيعية، أي أن الحضارات لا تتجدد أو تشهد ميلادا جديدا بعد الاندثار أو يستحيل تجديد شباب الحضارات، مثلما يتعذر استرجاع شباب الكائنات الحية. فالحضارة ليست لها أصولا أو فروعا، ولا تعيد تجديد نفسها بعد الوصول إلى الشيخوخة وبذلك فنظرته اليها نظرة تشاؤمية.

ويبدو أن "اشبنجلر" قد استلهم من "ابن خلدون"، هذا التصور الحيوي الدوري للحضارات بصفة عامة وشيخوختها – المدنية– بصفة خاصة، أسهب" اشبنجلر" في الحديث عن المدنية، والتحدث عن المدنية وهي تتجسد في مشكلة قوة الجوانب المادية والتقنية على حساب الجوانب الروحية والأخلاقية والفكرية، وهي المشكلة

التي جعلت من دون شك "اشبنجلر" أن يعتبرها بوصفها مشكلة عامة ليست رهينة الغرب فحسب بل تنطبق على ما كان منها وما سيكون.

فما يمكن تسجيله عن" اشبنجلر" درس الحضارة الغربية بصفة خاصة، وحاول من خلال الاعتماد على مبدأ المقارنة، العامة(الشكل) أن يجد ما يثبت صحة أحكامه واستنتاجاته، حيث نجده يصرح قائلا: << فإن فلسفتي الخاصة قادرة ان تعبر وتعكس فقط الروح الغربية (كروح مميزة عن الكلاسيكية والهندية وغيرها) في مرحلتها المدنية الحالية >> (اسوالد، 1964، الصفحات 113-114)، هذه المدنية قطعها العالم الغربي في القرن التاسع عشر (اسوالد، 1964، صفحة 89). ففي المدنية يمسي التاريخ طبيعة ويغدو الزمان مكانا، والاتجاه (***Attitude***) امتدادا (***Etendue***)، والعلوم الروحية علوما مادية، وتصبح طبيعة(غوته) طبيعة ميتة، وتزول الصفة العضوية عن كل مفهوم ويتخشب كامل الوجود، اذ تجف عصارة الحياة من ساقها إلى تاجها وأغصانها (اسوالد، 1964، صفحة 15).

يتصف منهج " اشبنجلر" بالجبرية المطلقة، حيث أن كل حضارة لها صيرورة حتمية، واتجاها زمنيا معلوما، ومصيرا وتاريخا محددا، وان الحضارة أسيرة مصيرها، فالتاريخ في تصور "اشبنجلر" خاضع لقانون حديدي وسمه المصير، فليس الإنسان هو الذي يختار مصيره، ويصنع الأحداث ولكن الحوادث هي التي تختار إنسانها وتصنع تاريخها. فالمدنية هي المصير المحتوم للحضارة (طحطح، 2009، صفحة 95).

6.2مسار الحضارة وتطبيقاتها

1.6.2 أصناف الشعوب:

يصنف "اشبنجلر" الشعوب الى ثلاث أصناف هي: شعوب سابقة للحضارة، وشعوب متحضرة وشعوب ما بعد الحضارة. يطلق على الشعوب السابقة للحضارة بالشعوب الأولية، وهي شعوب اندفاعية، ليس فيها اتجاه ولا يهيمن عليها مصير، ثم تأتي الشعوب المتحضرة (الأمة) والتي تنشأ عندما تستيقظ فيها روح الحضارة، التي تكشف ذاتها في جميع جوانب الحضارة ومظاهرها، وتتطور حسب صورة الحضارة التي أنشأتها، وهي تتميز عن الشعوب السابقة عن الحضارة، كون هذه الأخيرة هي شعوب عديمة الصورة، بينما الشعوب الحضارية تمتاز بأنها على صورة أو ذات صورة. (بدوي، 1982، صفحة 197) أما الشعوب ما بعد الحضارة (المتأخرة) فيطلق عليها شعوب الفلاحين، تتميز بالعقم وعدم الخصوبة، يصفها باللاتاريخية، كونها تفتقر الى وحدة الشعور بالمصير والتاريخ والوجود. (اسوالد، 1964، الصفحات 240-241)

2.6.2 مسار الحضارة:

لقد انتقد اشبنجلر ظاهرة تصور التاريخ تصورا تطوريا كخط أفقي، كما تصوره أنصار التقدم والذي يمثله على رأسهم "كوندروسيه **Nicolas de Condorcet (1794 -1843)** و "بنديتو كروتشي"

Benedetto Croce (1866–1952 م). ففي إطار تشبيه "اشبنجلر" حياة الحضارات بكائنات عضوية كالإنسان والحيوان، قد حاول دراستها على أساس مقارن، كما يفعل علماء الأحياء– البيولوجيا –، حينما يدرسون النباتات والحيوانات، وهذا بالرغم من وجود خصائص ذاتية لكل حضارة، فإن المظاهر التي تكشف عنها الحضارة الواحدة، تناظر تلك التي تكشف عنها سائر الحضارات. حيث يقرر" اشبنجلر" على أنه لا يشك أحد منا من أن شجرة من البلوط مثلا بعد أن بلغت من العمر ألف سنة، فإنه لا يمكن أن تبدأ اليوم نفس النمو الذي بدأت به يوم أن نبتت، لابد للكائن العضوي من حد عنده يقف النمو، وهذا الحد يتوقف على الصورة الباطنية (الذاتية) للنبات أو الحيوان أو التاريخ أو الحضارة، الأمر الذي لا يسمح القول بحضارة إنسانية تستمر في سيرها في خط أفقي ممتد وتاريخ عام. (اسوالد، 1964، صفحة 69)

فإذا كان سياق الحياة واحد بين الأفراد التي تدخل تحت نوع واحد، فللحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه. حيث يقول:" إن كل حضارة تمر بمراحل العمر ذاتها، التي يمر بها الفرد الإنسان، فلكل حضارة طفولتها وشبابها وكهولتها وشيخوختها. (اسوالد، 1964، صفحة 218).

كما يعد اصدق تشبيه قدمه "اشبنجلر" لحياة الحضارات، هو تعاقب فصول السنة، إذ كل حضارة تمر بدورة كاملة، تشمل أربع مراحل رئيسية هي: الربيع والصيف والخريف والشتاء، والعمر الافتراضي للدورة الواحدة يبلغ قرابة الألف عام.

كما يقابل "اشبنجلر" مسار الحضارة بأدوار وأطوار السنة، إذ أن لكل دور من أدوارها، يقابله عصرا من عصور السنة، فربيع الحضارة يمثل طفولتها، وصيفها يمثل شبابها، وخريفها يمثل كهولتها، وفي الأخير شتاءها يمثل شيخوختها. جاعلا لكل طور منها مميزاته وخصائصه الخاصة. وبذلك فتصوره "اشبنجلر" أن التاريخ مسرح يتألف من عدة حضارات عظيمة، وكل حضارة منه لها دورة حياتها، تبدأ بالميلاد **(genèse)** والنمو **(croissance)**، ثم تتطور لتبلغ أوج ازدهارها**(prosperity)**، لتشهد بعد ذلك الانهيار والتدهور **(décadence)** والسقوط الحتمي **(chute)** أو الأفول.

هذا وقد قاد بحث "اشبنجلر" في هذا المجال إلى تعيين الحضارات الأساسية في العالم وتحديد دورة حياتها التي لامناص لها من المرور بها، ويبلغ عدد هذه الحضارات العالمية ثمانية وهي: الهندية والبابلية والمصرية القديمة والصينية والمكسيكية (المايا– أزتك) والعربية أو(المجوسية) وهي تشمل ثقافات الشرق كاليهودية والفارسية، والكلاسيكية (اليونانية والرومانية) والأوروبية الغربية.

وسنتناول فصول هذه الحضارة باقتضاب:

مرحلة ربيع الحضارة(الطفولة): إن الحضارة في مرحلتها الأولى، تبدأ في اللحظة التي تستيقظ فيها الروح بكل إمكانياتها، وتبدأ في النضج والتشكل، ذلك أنها تظهر للوجود وهي تحمل صورة وجودها، فإذا أرادت أن تحقق صورتها فما عليه إلا أن تنظم ذلك الخليط الموجود على ارض الواقع،" ذلك أن الحضارة روح

تكمن فيها القوى الخصبة المتوثبة للتحقق تخرج الى الوجود في بيئة خارجية في حالة فوضى مطلقة فتشيع النظام وتطبع ما حولها بطابعها"(صبحي، 1994، ص 227) فالمرحلة الأولى هي طور الفاعلية، إذ الحضارة في بداية حياتها لا تبالي بكل ما هو موجود، بل تحاول أن تثبت كيانها الخاص، عن طريق التحدي الذي تواجهه على ارض الواقع، بفضل الإمكانات الزاخرة التي تحملها في باطنها في بداية حياتها. وهذه الفكرة لها اثر في فلسفة "ارنولد توينبي" **Arnold Toynbee** (1889–1975) إذ استلهم منها أسس نظريته"التحدي والاستجابة". إن "اشبنجلر" انطلق من فكرة هيغل القائلة بأن للحضارة روح، إلا انه لم يجعلها روحا واحدة، فهو يقسم التاريخ العالمي الى حضارات ولكل حضارة روحا أصيلة مستقلة بنفسها، تعبر عنها، وهي تختلف عن أرواح الحضارات الأخرى، إذ لكل منها صفة تخصها، فلا توجد حضارة عامة، بل لكل حضارة فلسفتها وتصوراتها. إن الدين يكتسي بعدا وأهمية كبرى في تفسير الحضارة، ويمثل ربيع كل حضارة. فالتطهير"تنقصه– في كل الحضارات– تلك الابتسامة التي أضاءت الدين وأثارته في ربيع الحضارة (اسوالد، 1964، الصفحات 242–243). والتطهير أو البيوريطانية(**puritan**) مذهب مسيحي بروتستاني ظهر في القرنين السادس والسابع عشر، يمثل خليطا من الأفكار الاجتماعية والسياسية واللاهوتية والأخلاقية، تستند تعاليمه الى الإيمان بالكتاب المقدس كمصدر وحيد للعقيدة الدينية، أي دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة. فروح الحضارة في دورها الأول روح دينية، فالإيمان هو الكلمة الكبرى التي ينطق بها الإنسان ضد الجزع الميتافيزيقي الذي يفرضه المصير. (بدوي، 1982، صفحة 222).

إن فترة ربيع الحضارة عند اشبنجلر تمثل مرحلة البطولة وما فيها من حياة الأساطير وشعر الملاحم، واتساع الخيال كفترة "هوميروس" في الحضارة اليونانية وأساطير الأبطال الآريين في الحضارة الهندية والدين الهيليني بالنسبة للحضارة الكلاسيكية والكاثوليكية الألمانية بالنسبة للحضارة الغربية. كما يرى أن الحياة السياسية والاقتصادية مبنية على النظام الإقطاعي الزراعي، والذي يشمل نظام كل حضارة فالمجتمع مبني على الثنائية الطبقية هما: طبقة الملاك الإقطاعيون، وطبقة الفلاحين، الأولى طبقة مستغلة وتشمل النبلاء وكبار رجال الكنيسة الكهنة، والثانية مستغلة ومحرومة من كل الحقوق، ويكاد أصحابها عديمي القيمة، فتشكيلة نمط علاقات الإنتاج هي التي تجعل المجتمع طبقيا، خاضعا لحكم طبقة نشطة هي النبلاء، ذات طموح ورغبة قوية في السيطرة والتوسع على حساب الغير .وبذلك يجسد دور الارستقراطية في صنع الحضارة، حيث يقول" لقد أمسى قدر الحضارة رهين قبضة النبالة. (اسوالد، 1964، صفحة 498)

مرحلة صيف الحضارة (الشباب): وتعد المنعطف الذي تشهده كل حضارة، إذ ينتشر الوعي الثقافي من النخبة الثقافية أو السياسية أو الحربية إلى جموع الشعب وتجتاز الثقافة عدة مراحل تبدأ بالتنظيم السياسي ثم العلوم والفنون المختلفة فتنتج أعمالا عظيمة، وعندما تبلغ هذه المرحلة ذروتها وأوجها تتجه نحو (الخريف)

حيث الانحراف عن الجانب القيمي، نتيجة بداية نفوذ رجال الدين على السلطة، وادعائهم بالوساطة بين الله والإنسان، الأمر الذي يجعل كل حضارة تشهد ظاهرة دينية في سيرورتها الخاصة، هي ظاهرة الإصلاح الديني، ومعناه رجوع الدين الى طهارة فكرته الأولى. حيث يقول:" إن للإصلاح الديني المعنى ذاته في جميع الحضارات، ألا وهو العودة بالدين الى نقاء فكرته الأصلية وصفائها، ولا تخلو أية حضارة من الحضارات من مثل هذه الحركة" (اسوالد، 1964، صفحة 431) في هذه المرحلة أيضا" تظهر القيادات الوثابة الطموحة، انه فصل ظهور وازدهار دولة المدنية في الحضارة الابولونية" اليونانية"، انه عصر النهضة وفن مايكل أنجلو الإيطالي وانتصارات غاليليو، وأنه عصر أدب شكسبير في الحضارة الفاوستية.

كما تشهد سياسيا أيضا ظهور المدن والتنظيم السياسي، وهو في الوقت نفسه ثورة ضد الميثولوجيا، ويظهر فيه ذكاء نشط يدفع الدين الى الخلف، ويقدم شكلا علميا من الوعي. هذه المرحلة عموما يصل فيها التطور ذروته، حيث تنضج كل الإبداعات وتكتمل، كما يحدث ذلك تماما في فصل الصيف، حيث تنضج الثمار.

مرحلة خريف الحضارة (الكهولة): وهي مرحلة النضج الكامل للينابيع الروحية الثقافية وبداية البوادر الأولى للشيخوخة والإرهاق فيها الملكيات المركزة، وفيها الفلسفة تتحدى الدين، والقيم السائدة باسم التنوير. هي مرحلة سيادة العقل، وذكاء المدينة وذروة الإبداعية الصارمة، إنها عصر الانتشار، حيث ظهور مختلف النشاطات العقلية وخاصة الفلسفية منها، كما تعرف هذه المرحلة التدفق الكامل للينابيع الروحية وإرهاصات استنفاذها، مما يؤذن بهشاشة وضعف طاقتها، هذا العصر هو عصر المدن، وازدهار التجارة وتوسع الدول، وتحدي الفلسفة للدين، وتمجيد العقل ومنحه السيادة الكاملة، "فالحضارة تتبدل لتصبح عقلانية المدن، هذه العقلانية التي ستسيطر اليوم على الجانب الريفي من البلاد، فالرمزية العظمى تجف وتذوي وصخب من الأشكال فوق الإنسانية تموت وتفنى" (اسوالد، 1964، صفحة 377) فالحضارة في هذه المرحلة تستنفذ كل إمكاناتها، فتصبح عاجزة عن الإبداع والابتكار، ليشدها الحنين الى مراحلها الذهبية الأولى، (الربيع والصيف لشعورها بالفناء)، حيث يقول اشبنجلر":" ثم وعقب هذه الحقبة ببعض زمن نرى الحضارة تصل الى الهشاشة وتشم عطر أواخر تشرينها(أكتوبر)." (اسوالد، 1964، صفحة 219) وهكذا تدخل الحضارة في طورها الأخير وهو طور الانحلال والذي يتمثل في مرحلة الشتاء.

مرحلة شتاء الحضارة (الشيخوخة): وتمثل آخر مرحلة من مراحل الحضارة، ففي الشتاء تفقد الحضارة روحها المبدعة وتصبح مجرد مدنية، ويتوقع "اشبنجلر" في ظلها زوال الحضارة، لأنها قد لفظت آخر أنفاسها الأخيرة، وقدمت كل ما لديها من إمكانات، فالمدنية علامة من علامات السقوط والموت، فهي تمثل نهاية لمسار الحضارة، إنها المصير المحتوم الذي لا بد لكل حضارة من بلوغه، ولا يمكن للإرادة الإنسانية الوقف أمام تحققها.إن مرحلة المدنية تشهد انحلال أخلاق الناس، حيث تسود الروابط المادية النفعية وتتحجر القلوب ويختفي صوت الوجدان، لسيطرة الأساليب المادية و التقنية على الحياة الإنسانية، ولا يقيمون وزنا للجوانب

الروحية، ولا معيار إلا لمعيار المادة، فإنسان المدنية إنسان نفعي، حيث يقول: " والإنسان في المدنية يضع نصب عينيه إشباع الحس هدفا له، ويقوم كل عمل بمقومات حسية تصب كلها في الجيب والبطن وما يشتق منهما، فإن المدنية عاطلة عن العظمة الحقيقية عقيمة لا مجال فيها للبناء الأصيل" (اسوالد، 1964، صفحة 16) كما يرى "اشبنجلر" أن المدنية تشهد غياب قيم النبلاء – الارستقراطيين–من شجاعة وشهامة وفروسية ووفاء لتحل محلها سيادة القيم المادية والاقتصادية والعلمية والتي هي علامة من علامات الضعف الحضاري، فإذا ما غاب الارستقراطيون عن الفعل التاريخي، وقف التاريخ عن التطور والحركة، بل يكون في حالة جمود وموت وزوال. (اسوالد، 1964، الصفحات 514–515) إن المشكلة الرئيسية في طور المدنية هي مشكلة أخلاقية، حيث تكون في طور الحضارة أخلاقا نظرية، وفي طور المدنية تتحول الى أخلاق عملية قائمة أساسا على المنفعة والكسب، وإقصاء تام للجوانب الروحية، وهنا يتفق مع ابن خلدون، حينما اعتبر أن الحضارة آخر مراحل المدنية والرفاهية، بل هي بداية الانحدار، فالحضارة عند ابن خلدون هي معاناة انتشار الترف والنعيم ومظاهر البذخ، الذي تسقط في ظله الدولة– كعنصر من عناصر الحضارة– لأن هذا الوضع يؤدي إلى تفكك رابطة العصبية، فيكثر النفاق والشقاق وتسوء الأخلاق.

3.6.2 تطبيقاتها:

لقد طبق "اشبنجلر" هذه الأطوار من مسار الحضارة على حضارتين هما: العربية والغربية.

في الحضارة العربية: إن الحضارة العربية، وتمثل في نظره جميع الحضارات التي قامت في الشرق الأوسط، ما عدا الحضارة المصرية، والتي تضم: اليهودية والمسيحية والزرادشتية والمانوية والنسطورية وجميع ما قام في منطقة الشرق الأوسط، وامتد حتى الصين وشمال إفريقيا التي تعتبر فرع من فروعها.

ولعل من الأسباب الجوهرية التي دفعت" اشبنجلر" إلى الاهتمام بهذه الحضارة وتصنيفه لها ضمن الحضارات الكبرى، هو التعرف على الشكل الباطني لها، والذي شوهته قوالب الحضارة الغربية، هذا الشكل الذي لم يتم معرفته حتى الآن، حيث أن هذه الحضارة استطاعت في فترة وجيزة أن تتخلص من قيود وأغلال الحضارة الغربية(التشكل الكاذب)، لتتمكن من السيطرة على جميع الحضارات التي قامت في الشرق الأوسط. (اسوالد، 1964، صفحة 18). كما يرجع "اشبنجلر" الجهل بهذه الحضارة إلى غياب دراسة حقيقية وموضوعية لها، وسبب ذلك يعود إلى التحيزات الفيلولوجية والدينية، نتيجة تشعب واختلاف الأقاليم المنتمية إليها، أدى إلى عدم وجود لغة، حيث أنها تضم عدة قوميات، يهودية، مسيحية، إسلام" فمهما بدت عقائدها متباينة مختلفة، فإن تدينا متجانسا ينتظمها جميعا، ويعبر عنها بواسطة رمزية متجانسة إلى الخبرة والعمق(...) وهذا الشيء ينبئ بروحانية متشابهة، إنها الحس بالكهف>>. (اسوالد، 1964، الصفحات 381–382) كما أن هذا الجهل يعود إلى تحيز الغرب لحضارته.

لقد قدم لنا " اشبنجلر" صورة الحضارة العربية، بدءا من رمزها ونفسها الأولية ومنشئها، وتطوراتها ومآلها، وهي تبدو صورة غير واضحة(خاصة سقوطها). فالحضارة العربية التي بدأت بالتاريخ الميلادي كانت أول مرحلة عرفتها هي مرحلة الربيع، التي ظهرت فيها الغنوصية والأناجيل (سفر الرؤيا) والأساطير المسيحية، والمازادية والوثنية، ثم مرحلة الصيف التي حيث ظهر فيها تشكيل صوفي ميتافيزيقي ونظرة جديدة إلى العالم، وذروة الفلسفة الكلامية، ثم تأتي فترة الصيف التي هي فترة الإصلاح مع أوغسطين واليعاقبة والنساطرة وهي فترة القرنين السادس والسابع الميلادي، ثم تأتي فترة الخريف والتي تعرف بعصر التنوير حيث الاهتمام بالعلوم الفلسفية وسيادة العقل، ثم بعدها تأتي مرحلة الشتاء (السقوط) وهي المرحلة التي تحولت فيها الحضارة العربية إلى المدنية، فاقدة للروح والحيوية، حيث أخذت مذاهب الشك والإلحاد في الظهور ويحصر هذه الفترة ،كما قلنا في مرحلة جماعة إخوان الصفاء وظهور الفكر التجريدي.

في الحضارة الغربية: إذا كانت الحضارة العربية لها فصول أربعة تمر بها فان الحضارة الغربية بدورها لا تخرج عن هذا الإطار. حيث يرى " اشبنجلر" أن ما يقابل المرحلة الأولى من مراحل دورة الحضارة الغربية (الأوربية –الأمريكية) من فصول السنة هو فصل الربيع، حيث بدأت في أول أمرها في فجر العصر الروماني القوطي حوالي سنة 900 م وتستمر إلى غاية القرن الخامس عشر، وهي بدأت طفلة لم تشعر بعد بقواها، ولكنها تؤذن بنمو فذ وسريع، فزكت وترعرعت، وهكذا زفت عليها روح الربيع فأشاعت فيها قشعريرة " الإبداع " والحياة المليئة، وأصبح كل شيء يوحي بميلاد روح جديدة. (بدوي، 1982، صفحة 104). أما مرحلة صيفها، فكان من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر– عصر النهضة– وتميزت على المستوى السياسي بمناهضة نظام الإقطاع وسلطان الكنيسة، وقيام الدول الحديثة والطبقة البرجوازية في المدن، أما على المستوى الثقافي، عرف ظهور شكل فلسفي مجرد للشعور بالعالم، ومناهضة المناهج المثالية، وحركة الإصلاح الديني، وعلى المستوى الفني ظهور الأسلوب التصويري في الهندسة المعمارية ابتداء من مكائيل انجلو وساد التصوير الزيتي ونشأة الموسيقى.

أما مرحلة الخريف، فتبدأ من القرن الثامن عشر وتنتهي بالقرن التاسع عشر، واتسمت على المستوى السياسي بقيام ثورات على أنظمة الحكم القديمة، كالثورة الفرنسية والأمريكية وقيام أنظمة الحكم الجديدة. أما من الناحية الثقافية، فعد هذا العصر بعصر التنوير والإيمان بقدرة العقل المطلقة، كما ساد هذه الحقبة من الناحية الفنية الموسيقى الكلاسيكية بتأثير عدد من الموسيقيين العظام أمثال "باخ "و"موزار" و"بتهوفن" ...

أما المرحلة الأخيرة، وتمثل شتاء الحضارة، والتي دخلت فيها الحضارة الغربية الى المدنية، والتي ابتدأت من القرن التاسع عشر الميلادي، وهي ما زالت مستمرة إلى غاية 2200 م تلاقي بعدها مصيرها المحتوم مثلما واجهته الحضارات الأخرى. يقول اشبنجلر:<< فعقب بضعة قرون من يومنا هذا، لن تكون هناك حضارة غربية، ولن يكون هناك من الألمان والانجليز والفرنسيين، أكثر مما كان هناك من الرومان في

عصر جوستيان>> (اسوالد، 1964، صفحة 313). كما يقول:<< فعندئذ لن تنشا أبدا أية حضارة مرة أخرى ونموذج بشري يكون فيه تاريخ العالم شكلا فعالا كهذا للوعي اليقظ>> (اسوالد، 1964، صفحة 59).

3. خاتمة

استطاع "اشبنجلر"، أن يقدم نظرية في تفسير الحضارة، وهي نظرية بيولوجية قائمة على فكرة التعاقب الدوري، حيث أن الحضارة في حياتها تمر بمراحل وأدوار تشبه تمام الشبه المراحل التي يمر بها الكائن الحي في حياته. فهي تنطلق من اللحظة تستيقظ الروح بكل إمكانياتها وتبدأ في النضج والتشكل ويوم تستنفذ هذه الروح جميع إمكاناتها، فيكون مصيرها الموت والزوال. كما شبه مراحل حياتها بتعاقب الفصول الأربعة للسنة، حيث تمثل مرحلتي الربيع والصيف طور الفاعلية والتقدم والنضج، والجوانب الغالبة فيها هي الجوانب الروحية، أما المرحلتين الخريف والشتاء فتمثلان طور الجمود والتدهور، وذلك لما تحمله هاتين المرحلتين من انحراف عن القيم الأخلاقية والإسراف في المظاهر المادية، حيث سيطرة العقل والمادة. وبذلك اعتبر "اشبنجلر" مرحلة المدنية هي المرحلة الأخيرة التي تصل اليها الحضارة، ويكون مصيرها المحتوم السقوط والأفول، لذا كان المصير حتمية عند" اشبنجلر".

عاش "اشبنجلر" في بيئة ثقافية متوترة، كانت فيها الثقافة الألمانية تواجه تحديات كثيرة، منها تحدي ازدهار الحضارة الغربية الانجلوسكسونية، وليبراليتها الفردية المفرطة، وتحدي التكنولوجيا وآلياتها، لذا فهو يعد مفكرا تشاؤميا، يتطلع الى غروب أصنام هذه الحضارة. فالحضارة الغربية وفق رؤية "اشبنجلر" حضارة عرجاء، تعيش حالة احتضار، وهذا بعد أن مرت بتقدم علمي وتكنولوجي غير مسبوق، وتغييبها المطلق للدين أو القيم الروحية. إن طرح "اشبنجلر" الدوري والتشاؤمي للحضارة، لم يكن نابعا من فراغ، بل حاول أن يجد ما يؤيد طرحه في تاريخ الحضارات القديمة، نظرا لما تحمله من تشابه، إذ الحضارات القديمة مرت بنفس المراحل العمرية البشرية، لتمر الحضارة الغربية بالمراحل ذاتها، لتحل محلها قيام حضارة جديدة. هذا دون أن نغفل تأثره بالنظريات السابقة في التعاقب الدوري، وخاصة نظرية ابن خلدون حول قيام وسقوط الدول. ولعل لدراسة تاريخ الحضارات، ومعرفة مسارها، من شأنه أن يمكننا من النهوض بهذا الواقع المأزوم والمهزوم الذي تشهده معظم المجتمعات اليوم، وبالأخص المجتمعات العربية.

كانت نظرية "اشبنجلر" في الحضارة مصدر الهام لكثير من الفلاسفة والمؤرخين، ولعل من أبرزهم "ارنولد توينبي" و"البرت شفايتزر" و "قسطنطين زريق" و"مالك بن نبي" وغيرهم. وفي الوقت نفسه كانت محل انتقاد واستهجان، كونه أسهب في أساليب التشبيهات والمقارنات أثناء تحديده لخصائصها ومقوماتها الأمر الذي أبعده عن الحقيقة والعلم، حيث لا يمكن مقارنة ما هو طبيعي بما هو إنساني، إذ لكل مجال محدداته وخصوصياته، هذا من جهة ومن جهة أخرى إفراطه في التركيز على القواسم المشتركة بين الحضارات وإغفاله

المطلق للخصوصيات التي تميز كل حضارة عن أخرى. هذا بالإضافة الى عجزه في التمييز بين الحضارات، حيث يعتقد أن الحضارة الفارسية والبيزنطية والسريانية والعربية هي حضارة واحدة اسمها الحضارة "المجوسية"، التي يعتقد بأنها تشكلت بتشكل الدول الهلنستية في الشرق.

قائمة المراجع

- ابن خلدون ,ع .ا .(2007) .*مقدمة العلامة ابن خلدون لكتاب ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر* .بيروت :دار الفكر للطباعة والنشر.
- ابن منظور) .. ,د ت .(*لسان العرب* .بيروت :دار صادر.
- اسماعيل وخليفة ,ف .ا .(2005) .*الايديولوجيا وفلسفة الحضارة* .الاسكندرية :مكتبة البستان.
- اسوالد ,ا .(1964) .*تدهور الحضارة الغربية* .بيروت :منشورات دار مكتبة الحياة.
- بدوي ,ع .ا .(1982) .*اشبنجلر* .الكويت :وكالة المطبوعات.
- بريتون ,ر .(1993) .*جرافيا الحضارات* .بيروت :د د .
- تركي ,م .ا .(2007) .*في فلسفة الحضارة قضايا ومناقشات* .الاسكندرية :دار الوفاء.
- تشيكو ,ا .(1989) .*مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وارنولد توينبي* .الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب.
- صبحي ,ا .م .(1994) .*في فلسفة التاريخ* .بيروت :دار النهضة العربية .
- صليبا ,ج .(1978) .*المعجم الفلسفي* .بيروت :دار الكتاب اللبناني.
- طحطح ,خ .ف .(2009) .*في فلسفة التاريخ* .لبنان :الدار العربية للعلوم.
- لالاند ,ا .(2002) .*موسوعة لالاند الفلسفية* .بيروت :منشورات عويدات.
- مؤنس ,ح .(1978) .*الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها* .الكويت :المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- larousse. (2007). *le petit larousse.* paris: larousse.
- Mathieu, G. (2006). *Oswald Spengler de la philosophie de l'histoire à la la philosophie politique.* Québec: Faculté de la philosophie université laval.
- Oswald, s. (2013). *Prussiainism and socialism.* ; Publisher ; Isha Books .